

في الأدب المقارن

التشابه والاختلاف

في الأدبين العربي والانجليزي

خاتمة

للأستاذ نغرى أبو السعود

يرجع الناظر في الأدبين العربي والانجليزي شدة ما بينهما من تباعد، وكثرة ما هنالك من وجوه الاختلاف، وقلة ما فيهما من وجوه التشابه والاتفاق، ولا غرو فإن الظروف الجغرافية والتاريخية التي أحاطت بنشأة كل منهما ونموه وازدهاره، كانت متباينة أي تباين، والعوامل الاجتماعية والسياسية التي تترك آثارها في الأدب كانت متضادة أي تضاد، فجاء الأدبان اللذان هما وليداً تلك الظروف والعوامل مختلفين أعظم اختلاف، في الموضوعات والأساليب والأشكال والأغراض، ولم يتفقا إلا في كل عام من الوجوه التي يستوى فيها جميع الآداب لشبوعها بين جميع شعوب الإنسانية

فالأمة العربية أمة سامية ضربت في فياق الجزيرة أحقاباً، وترعرع أديها تحت سماء البادية، ثم خرجت من جزيرتها فورثت حضارات الأمم الشرقية، وأخضعت لسلطانها أغنى بلاد الشرق وسيرت تحت لوأها شعوباً أرق منها مدنية وأعرق في العلم والصناعة ودانت لحكومة ملكية مطلقة، وكان الدين أساس دولتها وشارع مجتمعتها؛ والأمة الانجليزية أمة آرية خرجت من جزيرتها المنعزلة فجولت في البحار، وشاركت في تراث الاغريق والرومان، واعتنقت المسيحية، وساهمت في الحضارة الأوروبية، وتمسكت بنظام الحكم الديمقراطي؛ فهما أمتان مختلفتان في الجبل ونوع المجتمع ومتجه التفكير، فاختلف أدباهما تبعاً لذلك، ولم يتفقا كما تقدم إلا في وجوه عامة ومناخ عارضة:

فمصر الجاهلية في تاريخ الأدب العربي شبيه بعصر ما قبل اليزابث في التاريخ والأدب الانجليزيين: ففي ذينك العصرين كان كل من الشعبين يعيش داخل جزيرته في عزلة كبيرة عن العالم. على حال شبيه بعصر الابطال في بلاد اليونان الذي أنتج ملاحم

تتوسطها مقبرة الشافعي الخالدة؛ وكان النابلسي كما رأينا من أقطاب الصوفية الذين تستهويهم ذكريات القبور والمزارات المشهورة، ومن ثم نراه يفيض في وصف زيارته للقراة ومقابر الفسطاط التاريخية ولا سيما مقبرة الشافعي، وينوه بعظمتها وسحرها، ويترجم لمن يأتي ذكرهم من العلماء والأولياء؛ ثم يصف زيارته لمزار وليه المصطفى ابن الفارض بجامع القراة، كما يصف لنا حلقات الذكر الصوفي الذي تشد فيه القصائد والأناشيد المؤثرة، ويقول لنا إنه شهد الأولياء أحياناً يأخذهم التأثر فيمزق بعضهم ثيابه أو يدوس الناس هائماً على وجهه لا يلوى على شيء.

ولبت النابلسي بالقاهرة ثمانين يوماً حتى اقترب موعد السفر إلى الحج؛ فقابل أمير الحاج المصري إبراهيم بك واستشاره في خير الوسائل للسفر الآمن، وبذل أمير الحج له ما استطاع من النصح والمعونة، وأعد النابلسي عدته للسفر وودع أصدقائه في مظاهر مؤثرة، وغادر القاهرة في السادس من رجب (سنة ١١٠٥) في ركب من المصريين والشاميين، وغادرها من باب الشعربة كما دخلها، وودع الوزير خارج القاهرة بقصره بالعادية، وإلى هنا تنتهي رحلته المصرية

٥٥٥

وإذا كان النابلسي لم يكن كثيراً بدراسة أحوال المجتمع المصري يومئذ ولم يقدم إلينا عنه بيانات شافية، فانه يقدم إلينا بيانات وملاحظات لها قيمتها في دراسة المجتمع المصري في خاتمة القرن السابع عشر؛ ولعل أنفس ما فيها أقواله عن معالم القاهرة ومعاهدها، فهذه الأقوال في ذكر أبواب القاهرة وبركة الأزبكية وجزيرة الروضة والمزارات الكبيرة وغيرها ما يفيد في تعرف خطط القاهرة في هذا العصر، وهي تعتبر حلقة في مجموعة الآثار التي لدينا عن الخطط، ثم أن أحاديثه عن أعيان القاهرة وعن مجالسهم من الصور التي لها قيمتها في تعرف مجتمع هذا العصر. ولندكر أن العصر الذي يحدثنا عنه النابلسي يسبق بداية العصر الذي يحدثنا عنه الجبرتي بنحو خمسين عاماً فقط، ومن ثم ففي وسعنا أن نصل بين المواد المشتركة في هذين الأثرين في دراسة المجتمع المصري في القرن الثامن عشر

محمد عبد الله عاز

فقد كان منجزاً مثلاً أعلى في البلاغة وثقافة قائمة بذاتها ، والانجيل منذ ترجم إلى الإنجليزية في عهد الإصلاح الديني كانت له اليد الطولى في تثبيت الأسلوب النثري الإنجليزي ، وتثبيت مفردات اللغة وإدخال مفردات جديدة ، واشتقاق غيرها ، واختراع طرق للاشتقاق أدت إلى توسيع جوانب اللغة ، وكان دائماً قدوة للآداب يحتذونها في إسلاس الأسلوب ، وله أثر مباشر جلي في كتابين هما من ذخائر الأدب الإنجليزي ، أحدهما « رحلة الحاج » لبنيان والثاني « الفردوس المفقود » لملتون ، ففي كليهما يقوم أساس القصة على ما ورد في الانجيل من أنباء الخلق والبعث والحساب ، بل إن دراسة الانجيل كانت هي الثقافة الوحيدة التي نالها بنيان ، الذي كان قساً ضئيل الحظ من العلم ، ومع ذلك يعد أسلوبه المبني على أسلوب الانجيل في الذروة في أدب اللغة .

تلك أمثلة من وجوه التشابه في الأدبين ، وظاهر أنه تشابه عام عارض محدود ، أما وجوه التناقض فعديدة تشمل نواحي الأدب وتضرب جذورها في صميمه : فالأدب العربي ازدهر في كل دولة إسلامية فهو أشد تأثراً واصطفاً بالزعة الدينية من الأدب الإنجليزي ، ومع ذلك قد جرى العرب إلى غايات من الترف واجتناء اللذات لم يبلغ بعضها الانجليز ، وبدا أثر ذلك الترف المغرق بجانب ذلك الروح الديني في أدبهم ؛ وقضت التقاليد التي نمت في المجتمع الإسلامي بإسدال الحجاب على المرأة ، فتقلص ظلها من المجتمع وضؤل أثرها في الأدب ، وازداد ضآلة بمرور الأيام بدل أن يزداد جسامته بتوطد الحضارة وذبوع التلطم واتساع جوانب الأدب ، فكانت المرأة الإنجليزية أبن أثراً في أدبها - كاتبة ومكتوبة عنها - من المرأة العربية .

وعرف الانجليز فنونا لم يحفل بها العرب كثيراً كالنصوير والنحت ، وأغرموا بما اطلعوا عليه من آثار تلك الفنون من مخلفات الأمم القديمة ، وامتلاً أدبهم بوصف كل ذلك وتقديره والأدب العربي يكاد يكون خلو من ذلك ؛ وانكب أدباء الإنجليزية على دراسة الآداب الأوروبية المعاصرة وأفادوا منها كثيراً ، وتوفروا خاصة على دراسة الأدب الإغريقي القديم ، فكان لهذا الأدب أبعد الآثار وأشملها في الأدب الإنجليزي : رحب آفاقه وبسط أساليبه وأشكاله ، ومد أمامه منادح القول ووجه نظره إلى جمال الحياة الذي تصوره غرض الأدب والفن جميعاً واكتسب الأدب الإنجليزي صبغة إغريقية ظل الأدب العربي

هوميروس ، وكان الأدبان تبعاً لذلك جافين ، وعرى اللفظ والأسلوب ، ساذجين المعنى ، بعيدين عن الصناعة الفنية ، وكان أقل رقياً من الأدب الفني الذي جاء في العصر التالي ، وإن يكن الأدب العربي بلغ في عهد الجاهلية والبداءة والعزلة مبلغاً من الرقي أعلى كثيراً من مبلغ الأدب الإنجليزي قبل أن يتصل اتصالاً وثيقاً بثقافات الأمم الأخرى وآدابها

ونهضة العرب بظهور الإسلام تماثل نهضة الانجليز في عصر اليزابث ، بوصول النهضة الأوروبية إلى انجلترا ، واتجاه نظر الانجليز إلى ما وراء البحر ، ففي كل من هذين العصرين بدأت الأمة تخرج من محيط جزيرتها وتنبثق عن طوق عزلتها ، وتتصل بالعالم وتصطنع حضارته ، وتبنى لنفسها إمبراطورية مقرامية الأطراف ، وارتقى أدبها من جراء ذلك ارتفاعاً عظيماً ، ووقت ديباجته ودخل في طوره الفني ، طور الانشاء المحكم والمنجود الأدبي المتصل ، وانتشرت كلتا اللغتين في بقاع الأرض وافتتحت آدابها كثيراً من الأمم : فاللسان العربي الذي لم يكن يتجاوز حدود الجزيرة في الجاهلية ، صار يتكلم من تخوم الصين إلى المحيط الأطلسي ، وأثر في لغات وأزال غيرها وحل محلها ، واللغة الإنجليزية التي لم يكن يتكلمها إلا ملايين معدودة في عهد شكسبير أصبحت تتكلم وتدرس في مشارق الأرض ومغاربها ، وأصبح أدبها عالمياً كما كان أدب العرب عالمياً على عهد عظمته

ولم تكن كل من الأممتين توطد أركان إمبراطوريتها حتى انسلخ عنها جانب من أملاكها ونما مستقلاً حتى طاووها في النفوذ والسلطان ، ودانها في ازدهار العلوم والآداب : فكما انفصلت الأندلس عن الخلافة العربية ، استقلت الولايات الأمريكية عن الإمبراطورية البريطانية ، يد أن البلاد الأصلية احتفظت بالزعامة الأدبية على طول المدى : فلم تنجب الأندلس من الآداب من بدواخول المباسبين ، ولا ظهر في أمريكا ولا غيرها من أمحاء الإمبراطورية البريطانية من داني شكسبير وملتون ، فلعل التراث الثقافي الحافل ، والماضي التاريخي المؤثر من ضروريات ازدهار الأدب الأساسية ، وذلك ما كان يعوز الأندلس الإسلامية ، وما يعوز أمريكا الحديثة ، فظلت كلتاهما تلتفتان إلى الوطن الأول في طلب النموذج والمنهاج والوحي

وكلا الأدبين العربي والانجليزي تأثر إلى حد بعيد بالكتاب السماوي الذي تدين به أمته : فآثر القرآن في المجتمع العربي وتاريخ اللغة العربية وآدابها وثقافة أدبائها وأساليبهم جسم شامل،

بعيداً عنها ، فإن هذا الأخير لشديد اعتداده بنفسه لم يحاول أن يطلع على آداب غيره ، أو يستفيد من تراث اليونان الأدبي الحافل فكان ذلك الاقبال على الأدب الاغريقي من جانب الانجليز ، وذلك الاعراض عنه من جانب العرب من أكبر دواعي اختلاف الاديين وتباعدهما .

وفي عهد الدولة والحضارة والثقافة ، عهد الطور الفني للأدب حين يبلغ أوج رقيه ، رضح العرب للملكية المطلقة ، والملكية تكف الشعب عن الحكم وتكف الأدب عن النقد والاصلاح وتلحق الادباء بحاشيتهم ، فجاء الأدب العربي بلاطياً في جملته ، يتمدح بآثر الملوك ويصف مواكبهم ومظاهر عظمتهم ، ويفغل الشعب وأحواله وآماله إلى حد بعيد ، على حين اعتمد الأدب الانجليزي في أكثر عصوره على استجلاب رضى الشعب ، وتصوير أحواله ونشيدان آماله ، فامتلا الأدب الانجليزي بالنظرات النقدية والقصاص الاجتماعية والبحوث السياسية ، وحفل بتجديد الحرية والديمقراطية واحترام الفردية والراى العام ، على حين امتلا الأدب العربي بالمدائح والرسائل الديوانية ، فمن أكبر مظاهر اختلاف الاديين العربى والانجليزى ، صبغه الأخير الشعبية الفردية وصيغة الاول البلاطية الرسمية .

وهذا الانضواء تحت لواء الملكية أكسب الأدب العربي صفات وخصائص ظل الأدب الانجليزي خلوا منها : فقلبت على الأدب العربي — الذى تعود الإغضاء والرضا بالكائن وعدم محاولة الاصلاح — نزعة المحافظة والتقليد ، على حين سادت الأدب الانجليزي روح التجديد ، وتحدد على طول العصور لفظاً وأسلوباً وموضوعاً ؛ وكان من دواعي تلك المحافظة أيضاً اشتغال غير العرب بالأدب العربي ، بل ظهورهم على العرب في جمال الصناعة الادبية ، وقدم من جراء ذلك كله الأسلوب على المعنى ، وكان يعد أدبياً من تمكن من أصول اللغة وأحكم انشاء الجمل البليغة ، لا من لطف حسه وأرھف شعوره ، وانسمت نظراته وسمت فكرته في الحياة ؛ وكان من أثر نزعة المحافظة والجمود التى سادت الأدب العربي ان جدت أشكاله وموضوعاته ، فلم تتطور أشكاله وتميز وتعدد ، ولم تتجدد موضوعاته وتكاثر وتوالد ، على حين كان تاريخ الأدب الانجليزي تاريخ تجديد مستمر وإخصاب متزايد في هذه النواحي جميعاً .

ولسير الأدب العربي في ركاب الأمراء ، واعتماده على عطفهم

دون عطف الجمهور ، أهمل الأدب موضوعات كثيرة هي من صميم الفن ولباب الحياة ، وهي هم الأدب المفكر المحس ، كقيادة مقاتن الطبيعة والفن في عرضها ، واستلهاهم حكم التاريخ والتأق في وصفها ، واستيحاء جلائل البطولة وتصوير روائعها ، واستخلاص مواضع الفتنه والمتعة والجمال من خرافات الأقدمين ، وإرضاء الفن بنظمها وتجديد شبابها ، وعرض آثار الرحلات التى يقوم بها الأدب ووقعها في نفسه ، والسبح في عوالم الخيال البعيدة الساحرة ، والضرب في أعماق الماضي وآماد المستقبل وآفاق الانسانية الواسعة ، كان الأدب العربي — لاعتماده على صلات الأمراء — في شغل شاغل بحاضر العيش وقريب المطلب عن كل تلك العوالم الزاخرة بالفن والحياة والشعور والمتعة ، فأهمل بعضها ولم يمس بعضها إلا مساً رقيقاً ، وبكل هاتيك العوالم وذخائرها وأصدائها يحفل الأدب الانجليزي

هذا الاختلاف المطرد الشامل في البيئة والمجتمع والموضوع والأسلوب ، مرجع ذلك الاختلاف الرائع الملحوظ بين كتب الأدب العربى وكتب الأدب الانجليزي ، وغرول هذا وأقطاب ذلك ، وسيرهم وآثارهم وعقلياتهم وشخصياتهم ، حتى ما نكاد نرى في الاديين شاعرين متباينين أو كاتبين يذكرا أحدهما بالآخر ، من جهة العقلية والأسلوب أو الموضوعات ، أو ينشابه موضوع كتاب هنا وموضوع كتاب هناك ، أو تغال فكرة قصيدة في هذا الأدب صادرة عن نفس الحالة النفسية الصادرة عنها أخرى في الأدب الآخر ، ليس هناك شيء من ذلك ، وليس بين الاديين إلا التباعد والتناكر ، كما يتباعد ويتناكر شخصان غريبان مختلفا الموطن والنشأة والتربية ، والعقيدة الدينية والثقافة ، والنزعة في الحياة والمتجه في التفكير

فإذا وازنا بين كبرى شعراء الاديين ، المتنبي وشكسبير ، بدا لنا الاختلاف والبون العظيم : فجانب كبير من شعر المتنبي موقوف على المدح والهجاء ، ولم يقل فيهما شكسبير حرفاً ، وشعر المتنبي مليء بالحكم البليغة الموجزة المتجاورة بإراحم بعضها بعضاً وشعر شكسبير حافل بوصف الشخصيات وتحليل النفوس تحليلًا مسهباً لا يتوخى بلاغة الإيجاز في شيء ؛ وبجانب المدح والهجاء والحكمة وما ينصل بذلك لم يكد المتنبي بطرق موضوعاً آخر بعيداً عن دائرة حياته الشخصية ، بينما روايات شكسبير وقصائده تعج بوصف الطبيعة وتقديس الفنون كالموسيقى وتمجيد الأبطال ،

واجبنا الثقافي

نحو الآداب والفنون

للاستاذ اسماعيل مظهر

قال الأستاذ الكبير لولي إستيفن في أول الفصل الثاني من كتابه العظيم «الفكر الانجليزي في القرن الثامن عشر» ما يلي :
إن الكتب التي هي بمثابة الدعائم الثابتة في تاريخ الآداب ، إنما تكون من طائفتين : احدهما طائفة الكتب التي تلخص جلد الماضي ، والثانية طائفة الكتب التي تعد جلد المستقبل والظاهر من كلام هذا الرجل الفذ يتضمن في مطاويه كثيراً من الحقائق التي ينبغي لنا أن ننعم النظر فيها ، ونطيل التأمل والاستبصار منها ، ذلك بأن آدابنا وفنوننا حتى الآن تفقر إلى الطائفتين معاً : تحتاج إلى كتب تلخص جلد الماضي ، وتحتاج إلى كتب تعد البعده لجلد المستقبل .

أما الكتب التي تلخص جلد الماضي فلا سبيل إليها إلا بالترجمة والنقل عن اللغات الأخرى ، لنستكمل بها - في لغتنا العربية المنيفة - الأداة التي تعدنا لجلد المستقبل . وعلى هذا نريد أن ننظر أوسع آدابنا وفنوننا اليوم تلك الكتب التي تتضمن مشاكل الماضي وتعدنا لمشاكل المستقبل ؟

أما الذين هم أميل إلى التفاؤل فيقولون إن ما بين أيدينا من الكتب يكفي لتكوين الآديب الذي يستطيع أن يخاطق القضايا العقلية والنظريات التي سوف تكون عدة الجدل في المستقبل . وعلى النقيض من هؤلاء فئة تذهب إلى عكس ما تذهب إليه الأول ، وإن كل من يعرف مقدار التراث الذي خلفته القرون الأولى ، ويجوز ، بفكره جولة بقطع بها تاريخ سنين قرناً من الزمان ليقتنع بعد الشقة التي تفصل بين أبناء العرب وبين المراجع التي هي عدة لجلد المستقبل ، بلزوم الآداب على درس ما يلخص جلد الماضي ، من آثار الآداب والفنون .

عن لي أن أكتب في هذا الموضوع ، وأن أخص الرسالة بما أكتب ، إثر سؤال تقدم به إلى صديق من خريجي الأزهر ومن رجال التخصص فيه يريد به أن يعرف المصادر التي يستطيع أن يدرس فيها تاريخ الاسكندر المقدوني وحياته وأعماله ، وقد أراد

وتضرب في شعاب الخرافة وأرجاء التاريخ ؛ وشكسير يراوح في نظمه بين أشكال الشعر المختلفة ، بين الشعر المرسل والدوييت والسونيت ، والفقرات المتراوحة طولاً ، المتداخلة القوافي ، وقد دعى ضرب من السونيت باسمه لما أكسبه بعقريته من مرونة ، على حين ظل المتنبي - وهو الشاعر العظيم المتمكن من اللغة والآداب المطلع على حقائق الحياة - متمسكاً بالشكل الشعري الوحيد الذي وصل إليه من المتقدمين ، وهو القصيدة المصرفة المطلع الموحدة الوزن والقافية غير الموحدة الفكرة ، فلم يمنح الآداب العربي شكلاً ولا موضوعاً لم يكن من قبله ؛ وعاش المتنبي ومات طامحاً إلى الملك وتضريب الاعناق ، ساخطاً على تبريزه في مضمار الآداب الذي كان يحسد عليه ويكاد له من أجله ، ولم يكن شيء من ذلك مما يخطر لشكسبير على بال

وجلي واضح أن هذه الفروق بين الشعارين العظيمين إنما ترجع إلى العوامل الاجتماعية والسياسية ، التي كانت تحيط بكل منهما وتكون نفسيته وعقليته ، وإلى هذه العوامل ذاتها يرجع التباين الشديد بين أبي نواس وأبي تمام والبحرّري وابن العميد وبديع الزمان من جهة ، وبين ملثوث ويرون وشلي وكينس وجييون وكارليل وما كولي من جهة أخرى ، وهو تباين يجعل من المحال تشبيه واحد من الفريق الأول بواحد من الفريق الثاني ، في سيرته في الحياة أو فلسفته الفكرية أو مذهبه الآدبي ، وإن كان من أسهل الأمور استخراج العديد من أوجه الاختلاف والتضاد .

هذا الاختلاف في البيئتين الجغرافية والظروف التاريخية ، والعوامل الاجتماعية والاقتصادية ، والجملة والتقاليد والمنازع ، وهذا التباين بين الآديبين في المشرب والاسلوب والموضوع وشخصيات الأدباء وسيرهم ، كل ذلك يجعل الموازنة بين الآديبين من أمتع الدراسات الأدبية وأحفلها بالدروس والعبر ، وأدعاهما إلى استخلاص المبادئ والنظريات الأدبية ، وإلى التفطن إلى العوامل المؤثرة في الآداب وتنتاجها ، وقديماً قيل : وبضدها تميز الأشياء . ولو كان الأدباء شديدي التشابه وليدى ظروف متقاربة وعوامل مؤثرة متماثلة ، لما كان في الموازنة بينهما كبير ظائل ، ولا كان تتبع ظواهرهما يستحق طويل عناء ، ولا شياً أن يكونا أدباء واحداً مشتركاً بين أمتين ، موزعاً بين لسانين

فخرى أبو السعود